

مرايا الهوية المقعرة

اعتلال الهوية/ الفضاء الإشكالي

لعل التغيّر في مسار التاريخ الحديث، أو ما يطلق عليه بعالم ما بعد الحرب الباردة، أصبح يتكون بخلاف ما كانت تحكمه الهويات الثقافية للأقطاب والشعوب المتنوعة في الحضارة الكونية، بوصفها هويات حضارية متماسكة، وهو ما أشار إليه كثير من الباحثين وبخاصة صموئيل هنتنغتون Samuel Phillips Huntington في كتابه: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، عام ١٩٩٦، ومن قبله فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama، وغيرهما من الباحثين الذين أشاروا إلى صدام الحضارات، وإعادة رسم هويات هذه الحضارات، منها على وجه الخصوص (الصينية، واليابانية، والهندية، والعربية الإسلامية، والإفريقية، وأمريكا اللاتينية، بما في ذلك الهوية الغربية نفسها) وأن ما ستؤول إليه هذه الحضارات هو أزمة هوية كونية، بحسب تعبير هنتنغتون، يبحث فيها الفرد - أياً كان، وأينما كان - عن هويته من خلال سؤال مركزي: كيف يمكن تأكيد هويتي في ظلّ هذه الأرجاء اللامحدودة لفضاء المعنى المنفلت، وإفلاس الحقيقة؟ وهل وجودي الثقافي مرهون بتفردتي وانفصالي، أم مقرون بصياغة هوية الآخر؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي هزت كيان الذات في هذا الكون، وأثارت فضولها في السعي إلى الرغبة في حماية نفسها من مجهول «تصنيع» الهوية المعلبة، وتصديرها.

عبد القادر فيدوح

التاريخ يستخدم التكنولوجيا المتقدمة لصناعة أكثر المتوجات سرعة في مرورها، رغم أثرها الدائم، ألا وهي التجارب الإنسانية^(١)، وهو ما ولد أزمة هوية عميقة في الذات المرتهنة بالظلامية في خضم تراكم الإحباطات، والهزائم، والانتكاسات، وكثرة العلل، وزرع الفشل، من منظوماتنا الثقافية، والتعليمية المسؤولة عن خلق أجيال مكسورة، ومنصهرة في ثقافة مشوهة وهجينة من دون مسوغ أو شفيع، « وفي هذا الجو من الإخفاق الحداثي من جهة، وانكشاف الهامش المابعد حداثي من جهة أخرى، جاءت الهويات؛ وهي معنى ثقافي جديد، وهو جديد كمصطلح، وجديد كمعنى، ويمكن حسابه على ما بعد الحداثة كأحد سماتها الأساسية^(٢).

ويعد الحديث عن موضوع الهوية حديثاً ملتبساً إلى حد ما، ومفهوماً مفتوحاً، بالنظر إلى ما تحمله دلالة هذا المصطلح من تشعب في الطرح، وتنوع في الانتماء، سواء من الناحية الدينية، أو القومية، أو العرقية، أو الاثنية، أو حتى في بعض الخصوصيات اللغوية والمعرفية، أو في أنماط الحياة، إلى غير ذلك من الظواهر التي تربط الإنسان بالانتماء المزدوج في هويته المركبة، بما في ذلك عدم الانسجام داخل كل فرد في خياراته المتعددة، أحياناً، وفي خصوصية انتماءاته المضطربة، والمثقلة بالهواجس والريبة في أحيان

ومن هذا المنظور أصبحت الذات في أمس الحاجة إلى تعزيز هويتها في الوجود، وهذا يعني أن محاولة تأكيد صون التأصيل المنجلي أكثر في القيم المكتسبة، بات ضرورياً في مقابل المد الثقافي الثقافي culturalisme في افتتانه بتفصيل ثقافة جديدة وتفننه فيها؛ لخلق هوية جديدة، يحكمها الاستهلاك بالتجارة المربوطة بتخطي الحدود، وتسويقها، بخاصة، إلى الهويات المحلية، من فضاء منتوجات وحشية الرأسمالية الجديدة عبر الحاويات conteneurs وشعارات الصورة الدعائية المدهشة التي أصبحت تهدد كيان الثقافات المحيطة Les cultures périphériques بشكل عام، وحولت كل شيء إلى ثقافة تسلية، مدفوعة الثمن، وخلق تجارة ثقافية بوصفها شبكات ذات مغزى، موجهة إلى الثقافة الفرعية الدونية sous-culture بغرض خلخلة هويتها، « وعند هذا المنعطف تنجز الرأسمالية انتقالها إلى رأسمالية ثقافية تامة النضج، مستحوذة ليس على المعنيين بالحياة الثقافية والأنماط الفنية للتواصل التي تنقل نتائجهم وحسب، بل على التجارب الحياتية أيضاً، وهو ما أشار إليه ألفين توفلر Alvin Tofler حين

قال: «إن صانعي التجارب سيشكلون في نهاية الأمر قطاعاً أساسياً إن لم يكن القطاع الأساسي للاقتصاد... (وعندها) سنكون أول جيل في

ارتأينا أن نستقصي مسار الهوية من منظور "كونية الاتصال" في ظل المجتمع المعلوماتي و"التكنولوجيا الرقمية"، وعلاقتها بالذات، وبالأخر

كثيرة.

ووثباً على الجهود المبذولة لمفهوم الهوية من المفكرين والفلاسفة، كل بحسب رغبته في الدفاع عن انتمائه، أو طريقة تناوله لهذا الموضوع العسير منذ مقولة سقراط الفلسفية الشهيرة «اعرف نفسك بنفسك»، ومنذ طرح سؤال الفكر اليوناني عن ماهية الوجود، وتحديد الحق على أنه «ما يكون هو ذاته بما هو ذاته»، ومروراً بالصورة الروحية التي يقبض عليها الإنسان لمعرفة ذات الجلال في ذاته، من خلال القول المنسوب إلى الحديث: «من عرف نفسه عرف ربّه»، وصولاً إلى البحث عن هوية الذات في الفلسفة الحديثة التي نجمل رؤيتها في مقولة هيدغر Heidegger: «كيف يجب أن نكون نحن أنفسنا، والحال أننا لسنا نحن أنفسنا؟ وكيف يمكن لنا أن نكون أنفسنا، دون أن نعرف من نكون، حتى نكون على يقين من أننا نحن الذين نكون».^(٣)

وتجاوزاً لتلك الانزياحات العديدة التي مر بها مصطلح الهوية انطلاقاً من «[هو] نحوي إلى [هو] منطقي، إلى [هو هو] أنطولوجي، ومن ثم إلى [هوية] أنطولوجية في الفلسفة العربية الكلاسيكية، إلى [هوية] أنثروبولوجية وثقافية في نظام الخطاب السوسولوجي - التاريخي - اللاهوتي المعاصر»^(٤). وثباً على كل ذلك فإن رهاننا في هذا المقام يبني على تناول موضوع الهوية من منظور إمكان معرفة الذات بوصفها مصدراً للتواصل مع الوجود في جميع أشكاله.

وإذا كانت الهوية بهذا المنظور الذي رسمه الإرث الفكري عبر التاريخ، فكيف استطاع المنظور الحديث

نقل هذا المصطلح من معناه الأنطولوجي إلى معناه الأنثروبولوجي الثقافي، والدراسات الثقافية على وجه التحديد؟ وكيف يمكن للبحث أن ينمي هذا المصطلح وفق ما تستجيب له هيرمينوطيقا الهو Heméneutique de Soi، بكل ما يحمله المعنى من فضاء تأويلي يتناسب مع راهنية المسار الفكري، والهيم الذاتي، والمعطى الايديولوجي؟ وإلى أي مدى استطاع مصطلح الهوية أن يحرك الفضاء الإنساني من هواجسه بوصفها منبعاً للرؤيا، وخوضاً في التجربة؟ وقبل ذلك ما الذي يعيننا من الهوية بعد تداخلها مع مجموعة من الخطابات والمفاهيم الحديثة، والتواء بعضها في بعض؟ وكيف يمكن أن نفيد من مفهوم الهوية في صيغتها القديمة «الديكارتية»، أو من هوية السؤال الفلسفي: من نحن؟

لعل في كل هذا، وغيره من الأسئلة، ارتأينا أن نستقصي مسار الهوية من منظور «كونية الاتصال» في ظل المجتمع المعلوماتي و«التكنولوجيا الرقمية»، وعلاقتها بالذات، وبالأخر، وكيف تعيد تأسيس نشاطها في النص، وقبل ذلك كيف تصبح اللغة علامة دالة عليها، وفق فاعلية الرؤيا وفاعلية الإنجاز. وبتعبير أدق كيف تنخرط الهوية في الواقع المعمول؛ حتى يتحقق فعل الذات في صلتها بالوجود المتعدد الأنساق، ويتحقق فعل المطابقة بوصفه معياراً لكل أنماط الحياة اليومية في ثنيات متعددة تحدد علاقة الذات بالتأمل بصراً وبصيرة. وفي هذه الحال سوف نميل عن جادة من ينظر إلى الهوية تاريخياً، أو فلسفياً، أو اجتماعياً، أو أنثروبولوجياً ثقافياً، وأبعد ما نكون مع من يفسر الأسباب والدوافع المحاطة

من ثوابت على النحو الذي قنن له أفلاطون - مثلاً - حين أنكر تغير الأشكال الجوهرية، في مقابل التصور الوجودي الخاص للهوية التي تحمل سمات التغير بشكل مذهل وبلا كايح، في المدة الأخيرة، بعد أن أصبح «المشهد المدهش» يصنع بناء هوية - بل هويات - جديدة قوامها «أن الفورية المباشرة للأحداث، والطابع الحسي للمشاهد... هي المادة الخام التي يتشكل منها الوعي»^(٧). وفي هذه الحال، فإننا معنيون في هذا البحث بالكشف عن مدى تغير الهوية بالنظر إلى المؤثرات المتنوعة التي غالباً ما تميل إلى تجريد المجتمعات من القيم وتقوض أنظمتها الثقافية، كما أننا معنيون بالكشف عن مدى انحسار مساحة الوعي لدينا في تعاملنا مع الهوية من منظورها المعرفي الذي يدل على معنى الذات Sujet المتواصلة.

وبما أن طبيعة الذات متعددة المشارب، ومتنوعة المآرب فإن ميولها - غالباً - ما تمنحنا الإحساس باكتناه ما بداخلها من عمق في التصورات، بوصفها مصدراً - مرجعياً - للتأمل، وما ينتابها من شعور يغذي الوجود النفسي بما ليس على قيد ولا وثاق، أو في توقعها إلى الوجود الأسمى، أو تواريها في أحلامها المجهضة، أو من خلال ظروف قد لا تكون نابعة من اختيارها، سواء تعلق الأمر بالذات الفردية [المستلبة]، أم بالذات الجماعية [المتشظية]، حتى أنه «لم يعد ممكناً أخذ استلاب الفرد بالمعنى... الكلاسيكي؛ إذ إنه لتكون الذات مستلبة، يجب أن

بمعاني الهوية في جميع أشكالها المعرفية خارج نطاق الذات في علاقتها بالكون وبالأخر، وتواصلها مع المحيط. كما نحاول أن نبحت في مساعي الهوية عن المساهمة في إعادة بناء مسار الذهن الذي باتت ترسم ملامحه مستجدات العصر ومستلزمات «إعادة بناء الافتراضات الأولية الكليّة للمعايير والقيم»^(٥)، هذه الافتراضات التي تقودنا إلى البحث عن الذات في منظورها الفينومينولوجي.

وفي خطاب أكثر حداثة، وأكثر تجاوباً مع العصر أصبحت لدينا هويات متعددة تتداخل مع مجموعة من الحساسيات والمفاهيم والأذواق، وأكثر من ذلك «أصبح لدينا خطاب نفسي للذات، خطاب يبدو شديد الشبه - بالمرجعية السابقة - حيث فكرة الاستمرارية، والاستقلال الذاتي، والجدل الداخلي العميق النامي والمتفتح للشخصية. نحن لم نكن أبداً هناك، لكننا دوماً في طريقنا إليها (إلى هويتنا)، ومن المفترض أننا عندما نصل هناك، سوف نعرف، أخيراً - وبمنتهى الدقة - ماهي هويتنا؟ من نحن، تحديداً»^(٦).

وإذا كانت الفلسفة لا تنتج حقيقة، أو تبحت عنها، فإن نظيرتها «الهوية» هي ملتقى وسيط كل المعارف، تزيد من تأكيد حقيقة القيمة في الذات، غير أن بناء كل قيمة ثقافية مرهون بالتحول وفق ترتيبات خاضعة بالضرورة لنتاج الثقافة الجديدة، أو داخل صناعة الثقافة العالمية في تأثيرها الفعال على الثقافة المحلية، بما في ذلك ثقافة الأطراف؛ الأمر الذي يجبر الثقافة المحلية على الانعطاف عن كل ما هو جوهري فيها

لتلك الهويات العظمى علاقة بهويتنا الثقافية والفردية، فإنها لم تعد تمتلك الفاعلية الاتصالية والبنائية، أو قوة الرسوخ التي كانت لها من قبل، بحيث تسمح لنا بمعرفة من نحن بوضوح، بمجرد أن نضيف مجموع أوضاعنا إلى العلاقة بهذه الهويات. إنها لم تمنحنا شفرة الهوية كما فعلت في الماضي^(٩). وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى الهوية الغربية، فما عسانا نقول عن هويتنا العربية الإسلامية التي بدأت تخسر استمرار تواصلها التراتبي من يقين الإرث المرجعي، ودخلت في رهان مع اللامتاهي الذي يحاول أن يخلق بديلاً لكل ما هو ثابت وقار، والدخول في غمار المجهول بكل ما يحمله من صفات الغربة والغرابة، وحالة التفكك النيتشوي .Déconstruction Nietzscheenne

استلاب الذات/الهوية المخملية

يبدو أن الواجس خيفةً من التقلبات السريعة، أحدث شرخاً في مكونات الذات، وبنية الناص/العالم، إلى الحد الذي غير من المدركات الملازمة للمستجدات التي تقتحم كيانا، وسط محيط يتحول بسرعة فائقة، ويعطي ظهره للمبادئ اليقينية؛ الأمر الذي أسهم في فقدان توازن هويتنا، بخاصة بعد أن أطلت علينا الألفية الثالثة باقتحام وعينا، ومحاولة إعادة تكوينه، بطريقة راديكالية، تسعى إلى الوصول بكل ما تملك من وسائل اقتلاع جذري، وبسرعة، من منظور المصلحة والعقلية النفعية، وذلك بعد تدفق المعلومة الوافرة والمتركمة، بخاصة المجلوبة، مما يطلق عليه بالمجال السايبري

تكون أولاً متماسكة متجانسة، وليس مجرد أجزاء أو شظايا، كما هي فعلاً. وقدرة الفرد واقعياً على متابعة أموره في الزمن أو تفكيره بمستقبل له، أفضل بكثير من حاضره ومن ماضيه، إنما هي ممكنة فقط بفضل شعوره بمركزية ذاته أو هويته^(٨) الفردية في نزوعها إلى التحرر مما تراه قيماً، في ظل وجود تحكمه الهشاشة في كل شيء، وأصبح يفقد مكوناته المكتسبة، ويحاول أن يستبدل قيم الحاويات conteneurs وثقافة «رمي كل شيء» بحسب تعبير Alvin Tofler بالثقافة التليدة،

إننا معنيون في هذا البحث بالكشف عن مدى تغير الهوية بالنظر إلى المؤثرات المتنوعة التي غالباً ما تميل إلى تجريد المجتمعات من القيم وتقوض أنظمتها الثقافية

والقيم النبيلة، رغبة في الوصول السريع، وبتوصيل خدمات المظاهر بوصفها قيمة مضافة للتحسينات على حساب خدمات المعارف والأفكار، كما لو أن تسويق الثقافة المعلبة التي تنظم وعينا بكل ما هو محسوس، أصبحت تؤسس هويات جديدة، تحول كل ما هو هش وشكلي - وبما تحمله من دلالات السطوح - إلى هوية ثقافية جديدة متعددة، وغير متجانسة في جميع هويات البشرية، بما فيها الهويات التي تدعي أنها عظيمة في كثير من السرديات الغربية التي وصفها ستوارت هول Stuart Hall بأنها لم تكن ثابتة وراسخة، «وإذا كان

البحث، والتحكم في المواقع من خلال الشبكة العالمية (Le World Wide Web). وغيرها من محركات المجتمع الشبكي Réseaux sociaux، وفي هذه الحال لا يمكن فصل النص/ الواقع عن الكون، أو المتلقي عن الفضاء في اتساع مداه الواقعي والافتراضي، وبهذا المنظور تكون معايير المعرفة والإبداع في الساحة الثقافية قد تحولت إلى جذمور Rizoma من دون كابع، ومن دون توجيه سليم.

وإذا كانت فيزيائية الكون تستوجب الوعي خارج الصيرورة، ولوجه في عالم السيورة، فإن المسافة بين الصيرورة والسيورة هي نفسها المسافة بين الأصل المشترك والفعل الذاتي الذي بات يعزز حب التملك، وسرعة الوصول، واللهث في حب التنوع والتغير، رغبة في البحث اللانهائي عن التجديد المولد، واستبدال الأصل الجديد بالأصل المشترك، أو بالمرجعية التي كانت تؤسس علاقة الإنسان بالقيم، في مقابل حاجات الذات في راهنا إلى التشدد بالتميز، والميل عن جادة الصواب- بوعي أو من دون وعي- إلى تكوين هوية

جديدة أصبحت تؤسس علاقة الإنسان بالأشياء، من منظور أن «الشيء ليس السبب السابق عليه، أو المكون له، بل في الغاية التي وجد من أجلها، والغاية كاملة في الشيء، وليست كالكسب الذي يسبق الشيء ويختلف

Cyberspace الذي يسهم في توليد جيل جديد، تحكمه شبكات افتراضية عبر وسائل تكنولوجيا المعلوماتية، ويشكل جسراً لعبور أفكار تتجاوز مركز المكان المحدود، ويحول التصورات الثابتة إلى تصورات متداولة. وقد باتت تأثيراته أعمق على البنية الأنطولوجية بتوسع المفاهيم والكيانات، ناهيك عن استثماره في تنظيم شبكة بيانات المعنى Le Web sémantique، والربط بين العلاقات ذات المعنى بإشراك المتصفح، رغبة في إنتاج المعنى الدلالي المراد له.

وقد أحدث هذا المجال ثورة في فضاء المعلومات، ورجة عنيفة- تجاوزت هزة ثورة كوبرنيك- وصار العالم يسير «سيراً أعمى ما فتئت عجلته تزداد سرعة، ويحرك الكوكبة الفضائية [الأرض] أربعة محركات مرتبطة بعضها ببعض، وهي العلم، والتقنية، والصناعة، والاقتصاد الرأسمالي... وإن هذا المحرك الرباعي هو الذي يحرك كوكبنا الذي فقد توازنه... [وبالإضافة إلى ذلك] يمكننا أن نتصور [أن هناك] تطوراً متصلاً بالذكاء

الاصطناعي وبالتنظيم الآلي يتيح لآلات تنظيم نفسها ذاتياً؛ أي الإصلاح الذاتي، وأخيراً التكاثر الذاتي الذي تنبأ به تورنك «Turing»^(١٠). والذي أصبحنا نعيشه اليوم مع عالم البوابات الإلكترونية ومحركات

موجة "المجتمع الشبكي Réseaux sociaux" بدأت تخلق أساليب جديدة لأنماط حياة جديدة، بعد أفول "النموذج" في الهويات التقليدية، وصعود هويات جديدة يمكن أن نطلق عليها «البراديغم» Paradigme

عنه، فالعلة الغائية كافية بمعنى أنها تحقق هوية الشيء، تمنحه دلالته، أو وظيفته»^(١١).

ولعلنا ندرك أن موجة «المجتمع الشبكي Réseaux sociaux» بدأت تخلق أساليب جديدة لأنماط حياة جديدة، بعد أفول «النموذج» في الهويات التقليدية، وصعود هويات جديدة يمكن أن نطلق عليها [البراديجم Paradigme] بوصفه نسقاً ثقافياً يميله استيعاب تجارب أنماط الحياة اليومية، وإعادة هيكلة هذه الحياة بحسب مستجدات العصر، يوحدها اهتمام مشترك في رؤية مركزية هي السوق بنظامه الاستهلاكي، المربوط بتشتت الأذواق، عن كل شيء، عند الحاجة إلى أي شيء، وليس أدل على ذلك من مجمعات الأسواق الاستهلاكية المنتشرة كالجذومور في مدننا «وفرط السوق هو بمثابة نواة لا تبتلعها المدينة الحديثة، فهو الذي يقيم مداراً يتحرك حول المجتمع السكاني، ويلعب دور مزدوج Implant لتجمعات جديدة كما تفعل أحياناً الجامعة أو المصنع... مصنع التركيب الآلي ذي التحكم الإلكتروني؛ أي المطابق لوظيفة أو لسلكة عمل غير مرتبطين بمحيطهما بالمطلق مع هذا المصنع، كما هو الحال مع فرط السوق»^(١٢) كأسلوب حياة جديدة، ينبغي الاحتذاء بمقتنياته ذات المواصفات الإشهارية، ومتابعة مستجدات الصرعات العالمية، في آخر ما أنتجته الشركات المتعددة الجنسيات، ومجارة لهذا النسق صار الجيل الجديد يتولى ابتكار معانيه عبر اكتشاف الرموز الجديدة.

يعد البراديجم - المقصود في هذا المقام - تحدياً أكبر

لثقافة الاستهلاك - في كل شيء - بعد أن تمرد على كل ما هو منظم، وموحد، ومنطقي، في مقابل مستلزمات التواصل الشبكي من تدفق المعلومات، وخلق فضاء افتراضي، والمتمسك الوصول بأقل مسافة (زمانية/ مكانية، ومادية / معنوية). ويعني ذلك استبدال تعظيم الذات، وانحلالها، بفقدان توحيدها مع المحيط، وخلق براديجم مقابل أفول المرجعيات الأساسية الكبرى، وتعويض اليقينية بالنسبية التي ترفض تسليم رأي أحدهما برأي الآخر مهما تعززت أدلته، واستبدال انفلات المعنى بالسعي إلى المقاصد الغائية. وقد كان لثورة الاتصال والمعلوماتية الدور الكبير في إحداث مجموعة من التحولات المترابطة، كلها، في خلق فضاء افتراضي يهندس الوعي الجديد في كل مجالات الحياة اليومية، وهو ما أثر تأثيراً مباشراً على الأنساق المعرفية التي باتت محكومة بالبراديجم، تتعامل معها المعلومة كمسلمة بحسب تعبير توماس كون Thomas Kuhn، في كتابه «بنية الثورات العلمية» وأن كل شيء خارج البراديجم يعد مشكوكاً في نتائجه، وموضع مساءلة، انطلاقاً من أن أي شيء يظهر في الوجود يكون له أتباع، ويمكن أن يكون جزءاً من البراديجم.

لذلك أصبح ما يقدمه السوق من صرعات الموضة، المرهفة الحواس، نموذجاً جديداً ينبغي تقليده، بوصفه خياراً جديداً، بديلاً عن النموذج التقليدي، وجسراً بين الثقافات، يربط المحلي بالعالمي، والذات بالآخر في تكوين ثقافة جديدة تؤسس هوية جديدة، أو براديجم جديد؛ لإرشاد المستهلك/ المتلقي إلى معنى اختيار

الواقع، أو الواقع المتعالي (Hyperréel) كونه يعيش الحقيقة التي تخفي عدم وجود الحقيقة، ويحاول أن ينفي الواقع الوجودي / الملموس. وفي ظل هذا الواقع المتعالي الجديد ليس لنا إلا أن نستسلم لما تستحوذ به علينا حالة التغير الشمولي في جميع العلاقات الثقافية والمعرفية والاجتماعية والاقتصادية، وفي خضم ذلك لم يعد المجتمع في عصرنا الحالي يعتمد على تعزيز الروابط، وتمكين الأواصر، وتوطيد النفوس على حب الخير، وتحقيق المنفعة العامة. أضف إلى ذلك أنه مع تنوع الخدمات تلاشت العلاقات، ومالت إلى طبيعة كل ما هو عابر، ولا عجب في أن يصف جيرمي ريفكين Jeremy Rifkin في كتابه عصر الوصول The Age Of Access المجتمعات الحديثة بأنها باتت تقاس بالخدمات الترفيهية، وأن قيمتها تتوقف عند الرغبة في سرعة الوصول بأي شكل من الأشكال؛ الأمر الذي غير مبادئها، وأتلف هويتها، وحول اتجاهاتها الثقافية إلى بوصلة أوقعها في معايشة الوهم، وإشباع خاطر، العابر.

إن ما هو سائد في حياتنا هو مصادرة القيم، بجميع أشكال هوياتها التقليدية، في مقابل مبايعة السوق [المجمّعات]، وفاءً لإشباع الرغبة الجموحة في الانقياد وراء الأهواء، بعد أن تحولت حياتنا إلى سلع، وأصبحنا مربوطين فيها بكل ما هو تجارتي La commercialité.

وإذا كانت هذه الأسواق قد جلبت لنا ما لم يكن يتصوره العقل - قبل عقد من الزمن على أقل تقدير -

ودلالات ما يعرض عليه من تجارب جديدة، العابرة للقارات. أضف إلى ذلك أن فرط السوق لم يعد مقتصرًا على عرض خدمات و سلع، بقدر ما ظل يعرض أفكاراً ودلالات، تجاوباً مع خلق نمط جديد، لهويات جديدة، وبثقافات مدروسة، تقوم على اعتبارات جمالية ذوقية؛ لإغراء المستهلك المرتبط بالعالم الافتراضي، وليس بالعالم الواقعي، وأن رغبته مشحونة بالاقتناء - حتى لو كان ذلك بومضة النظر - فيما يشاهده من رموز تحرك مشاعره التواقة إلى التجديد برؤية أفكار ما بعد الحداثة. ومن هنا كان للمجمّعات الاستهلاكية (السوق) التأثير البالغ على الثقافة المحلية، وبوابة لإشاعة الأذواق الجديدة، وإزاحة الحجب عن مشاعر قيم الحشمة، حيث كل شيء في السوق يختلف عن متطلبات الجيل السابق. وقد لا نستغرب هذا الدور من السوق حين نعلم أن جميع أشكال التغيير تبدأ من تغيير الذائقة بجميع حواسها، ومنحها ما يليق بها من مطالب تفرضها المستجدات؛ الأمر الذي دفع نسق السوق إلى أداء دور المخلص، والمنقذ، لأحلام الشباب الوردية، وقد عرف السوق كيف يجمع بين الربح والتغيير الثقافي، وأتقن بمهارة مدروسة كيف يجذب إليه كل الأذواق.

وتعدُّ ثقافة التسوق نمط حياة، خاصة حين نعلم أن [الإنسان يصنع السلعة والتسوق يصنع الحياة]، وبقدر من التأمل ندرك أن جيلاً جديداً أصبح يتشكل على وجه الكرة الأرضية من ثمار عصر النسخ الآلي؛ إنه جيل «مجتمع المشهد» وهو المجتمع الذي عبر عنه جان بودريار Jean Baudrillard بمجتمع (فوق

إن ما هو سائد في حياتنا هو مصادرة القيم،
بجميع أشكال هوياتها التقليدية، في مقابل
مبايعة السوق «المجمّعات»

السلع في الاستهلاك) بدأ الأفراد ملزمين بالتأقلم مع ما هو جاهز للاستعمال، جديد باستمرار، وآيل في كل لحظة إلى الزوال». (١٣)

وإذا كان التسوق في مجال الاستهلاك المادي مقبولاً؛ لظروف حتمية، فإن ما هو غير مقبول، أن تكون ثقافة الشعوب بجميع مكوناتها سلعة مدفوعة الثمن نتسلى بها، بغرض تأمين الوصول السريع الذي من شأنه أن يغذي نشوة النصر بالتملك، والسعادة بالتميز ليس إلاّ.

إن الفجوة الثقافية لجيل البوابات WWW، أو كما يطلق عليه جيل دوت كوم dot.com تصاحبها فجوة معظم مؤسسات المجتمع المدني - في بلادنا العربية على وجه التحديد - وعلى رأسها الأسرة، بعد أن تمت مصادرتها هي الأخرى؛ لتندمج في [الخارج] من مقصد السوق بجميع أطراف مكوناتها، على حساب [الداخل] الذي كانت تراعي فيه هويتها. وبصورة أدق تحولت الأسرة في علاقاتها من سند [الاعتبار] في تعزيز تجربة العبرة والموعظة، إلى فصل العلاقات بعضها عن بعض من سند [الافتراض]، وهو ما أثر سلباً على نمط الخطاب الاجتماعي، ناهيك عن السلوك الثقافي في خلق ذوق جديد، وأسلوب حياة جديدة.

من أحدث سبل الاتصال والتواصل، ووفرت متطلبات الرفاهية؛ لتأمين سعادتنا بفعل انتعاشها باستمرار، فإنها بالمقابل أصبحت مبعث قلق من هوس الاقتناء برغبة متلهّفة، ومن دون رقابة، بما فيها الرقابة الذاتية، بعد أن صار التسوق - بثقافته - يتحكم في حياتنا، ويجبرنا على تسلل أيدينا خفية إلى مصدر مدخرات وقت الحاجة؛ لإشباع مهمة الشراء المفرط - في معظمه - حتى أصبحنا نقاس بمظاهر ما نملك، وليس بالكيفية التي تجعلنا نستجيب لحاجاتنا الضرورية.

ولعل المتأمل في حياتنا الاجتماعية المضطربة، يدرك أن ثقافة الاستهلاك في مجتمعاتنا العربية على وجه الخصوص، والمجمّعات كافة، باتت تهدد هوية الشعوب، وتبدد حدود العلاقات الإنسانية، وتخلخل المقومات الاجتماعية، وهو ما قد يؤكّد - بنظرة استشرافية - تمخضها لتلد كائناً بشرياً غريباً في أطواره، عجباً في أمزجته، فلقاً في تصرفاته، خاصة عندما يصبح السعي إلى «الوصول» هدفاً، ونمط حياة، مع جيل الشاشات المرئية، والصورة الإشهارية، وهو ما أطلق عليه ديفيد هارفي David Harvey بالتراكم المرن الذي أصبح فيه المجتمع يوصف بـ [رمي كل شيء]، ولعل «ذلك يعني أكثر من مجرد رمي سلع مستهلكة (وما يتبعها من تراكم فضلات)، بل هي أيضاً القدرة على رمي القيم، وأنماط العيش، والعلاقات المستقرة بعيداً، ورمي الألفة مع الأشياء، والأبنية، والأمكنة، والناس، والطرائق الموروثة في السلوك والكيونة.... ومن خلال مثل هذه الآليات (التي بدت شديدة الفاعلية لجهة تسريع عائد

الوثوق بالمبادئ، فإن هذه الأخيرة ترى في الأولى أنها متمسكة بالضمير الجمعي الواهي الذي لم يعد له مفعول في الحياة الجديدة، وأنها لم تعد تقوم بدور الإنتاج الوظيفي في علاقة الإنسان بالمحيط، وأن كل ما في وسعها القيام به لا يتجاوز الالتزام بمعايير المثالية الضابطة؛ لذلك ينبغي - في نظر أنصار البراديغم - إعادة

بناء تكوين الركيزة الذهنية التي تستند إلى الافتراضات بوساطة اللسان في حقيقته الاجتماعية بـ: [لغة تداولية [تنبثق من الواقع، ومن جميع الفضاءات العمومية التي تسع مدار المطالب بأفق مفتوح، وتُفرد بمضامين حياتية وفق توجيهات

علم اللسانيات الاجتماعية Sociolinguistics، بوصفه علماً يعنى بتأثير المجتمع على اللغة، بخلاف اجتماعيات اللغة La sociologie du langage التي تعنى بتأثير اللغة على المجتمع.

وإذا كانت اللغة - بغاياتها، ومضامينها - ظاهرة إنسانية تواصلية، وعنصراً مهماً من ماهية الإنسان، وموسومة بهوية ذويها، فإننا نعتقد أن كل ما عدا ذلك يعد انسلاخاً عن مرتكزات الهوية، وتحولاً عن منزلتها، ومن سياقها الحضاري. إذا كانت اللغة بهذا المنظور لدى المتمسكين بالأصالة، فإنها في سلوكيات أنساق الثقافة الجديدة على غير سمت، ويعتقد أنصارها أنه

ولكن، ربّ قائل يزعم: وما عساك تقول في هذا التطور الهائل بالأدلة القطعية لما نراه في اتساع مدى ازدهار وسائل التنوع الثقافي، وما تثمره التكنولوجيا الرقمية؟ وهل لك أن تبرر أهمية المنفعة منها، من عددها؟ أم أن عقولنا معميّة، وغير قادرة على تمييز الصالح من الطالح.

إن جميع الفرضيات الاحتمالية والحقيقية تشير إلى تشجيع تعميم الفائدة من وسائل تكنولوجيا المعلومات، وما تحدّثه من تحول كبير لإنعاش الرأي العام وتوعيته، وإكساب الذوق الرفيع، وتنمية المهارات الثقافية، عند

التعامل معها بما تهدف إليه المصلحة العامة، والفائدة المشتركة، والقيم المتبادلة.

الهوية الناعمة/إنتاج المعنى

إذا كانت الهوية التقليدية ترى أن البراديغم (هوية الجيل الجديد، ونحن في هذا المقام لا نقصد الجيل التوليدي Generation génératif الذي يسعى إلى الخلق الإبداعي، وفق ما تمليه عليه القواعد اللغوية السليمة، وإنما نقصد ما يطلق عليه في قاموس الشباب بجيل (Y)^(١٤) في أنساقه الثقافية الجديدة، ثمرة معايير أفكار ما بعد الحداثة، الآخذة بالصعود في كل مرافق حياتنا اليومية، وأنها تشوه الذوق الرفيع، وتعمل على عدم

إن الفجوة الثقافية لجيل البوابات WWW، أو كما يطلق عليه جيل دوت كوم dot.com تصاحبها فجوة معظم مؤسسات المجتمع المدني. في بلادنا العربية على وجه التحديد. وعلى رأسها الأسرة

عدم استقرار الذات في كيفية التعامل مع وسائل التواصل اللغوي السليم *La langue standard*، ومع مناهج التعليم الناجع، والفعال، وهو ما تحاول خلخلته أفكار ما بعد الحداثة التي تركز على أن يكون المجتمع متفاعلاً مع ما يولد من سياقات لغوية تحاكي الجيل الجديد الذي يتعامل مع لغته بناء على التصورات التي يكونها المحيط وثقافة السائد، وهذا يعني «أن الإرباك وإيجاد عدم سكون وتنظيم الذات هي خصائص طرق التدريس ما بعد الحداثة، إذ وجود قدر كاف من الاختلال وعدم السكون يقود إلى تغيير نظام القناعات والمسلمات»^(١٦) ولا شك في أن لتوجهات الثقافة المجلوبة دافعاً بالغ الأثر على ما أصاب الحياة الاجتماعية منذ العقد الأخير من القرن الماضي من تحول، وانفلات في مسار التفكير، والإبداع، ولغة التواصل؛ الأمر الذي سبب ميلاً عن الغايات في مضامين الهوية من حيث المبادئ، والانحراف في كل السبل، والفساد في القيم، والضلال في التصور، والعِي في التعبير، بما لا يفيد المعنى في الوجه المراد؛ مما سبب سماجة في الذائقة السليمة، وميلاً إلى الشك فيما أطلق عليه فرانسوا ليوتار *François Lyotard* بالسرديات العليا، أو ما وراء السرديات الموروثة *grand narrative* أو *meta-narrative*. وينطبق هذا الانفلات والتحرر من ضوابط اللغة حتى على المبدعين ومستعملي اللغة الراقية، لغة الخطاب الرسمي، على حد تعبير جان جاك لوسر كل *Jean-Jacques Lecercle* في كتابه: عنف اللغة *The Violence of Language* الذي يرى

ما دام كل نسق دال مرهون باللغة فإن تحولها مرتبط بمستعملها، كون اللغة تعبيراً عن كل ما يصدر منا، وهو ما تناوله الدراسات السيميائية بالتفصيل، انطلاقاً من أن كل شيء دال بحاجة إلى لغة تعبر عنه، وهنا يشير رولان بارت *Roland Barthes* إلى أنه من الصعب جداً تصور إمكان وجود مدلولات نسق، صور، أو أشياء خارج اللغة، بحيث إن إدراك ما تدل عليه مادة ما، يعني اللجوء قديراً، إلى تقطيع اللغة، فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة»^(١٥)

إن فقدان الهوية اليقينية، أو التقليدية، في ظلّ أنساق البرادغيم، والبعد الثقافي الجديد، جعل الوعي التواصلية - الذي من شأنه أن يحقق الإجماع، والتفاهم، والحوار - ينحسر في كل ما هو سريالي بصوري، ينقصه النظام والمنطق، ومكبّل بمصادرة الموقف، وضعف الصريمة، كما أخضع هذا النسق الجديد الوعي إلى المسلمات الواردة من تعدد الروافد، إما في شكل الحاويات *conteneurs*، أو في شكل ثقافة العولمة المعلبة في المسميات الفكرية، والسلوكيات المحتذى بها؛ الأمر الذي أفقد المعنى الذاتي هويته، وتكاسل القصد، وتخاذل المراد، وخنع العزم، وخضع، وتلاشت فيه صور الدفاع عن التفكير العقلاني، وتضعفت الرؤية في منحها الأصيل، ومرجعيتها الإبداعية بلغتها الموروثة. وإذا كان هناك من إرباك - بهذا المستوى - في توظيف اللغة بوصفها ظاهرة تواصلية - بالمواضعة - بقوالب تعقيدية تتفرد بها وتميزها، فإن ذلك يرجع إلى

المجتمع الحديث أن يحتمي بضميره الجمعي، كما لم يعد للمرجعية دور التوجيه، وهو ما جعل الوعي / الحضور يفقد وجوده بـ [الفعل المنجز] مقابل وجوده المشدود بـ [التفاعل / المنفعل]، أضف إلى ذلك أن «الناس اليوم لا يتوقون إلى الخلاص الشخصي، ناهيك بإعادة عهد ذهبي سابق، إنما للشعور وللوهم اللحظي، للرءاء الشخصي، والصحة والأمان الذهبي... أن تعيش ليومك هو الشغف السائد، أن تعيش لذاتك وليس لأسلافك، أو للأجيال القادمة».^(١٧)

وفي هذه الحال استطاعت ما بعد الحداثة أن تفصل بين ثقافتين، الأولى رفيعة [أصيلة]، والأخرى وضعية [فرعية]، وانتشار هذه الأخيرة، وصعودها، على حساب الأولى، وخفوتها، يعد من باب المدّ الانحرافي، والتدهور الثقافي الذي بدأ يتغلغل في الوعي الاجتماعي، وبمقومات تعكس حالة التقهقر، بمنظور التفكيك النيتشوي *Déconstruction Nietzscheenne* في هوية البرادغم الجديدة، وفي ظل التطورات المتنامية، والتغيرات الجذرية؛ مما أدى إلى استحالة المتابعة بانتظام، واستيعاب ما يعرض على الإنسان من نتائج وأفكار، وتحديدتها بشكل دقيق، من دون التمكن من مفاصلها بشكل محكم، وفق المعنى الدلالي المتواضع عليه من جراء ما يدور في التواصل الاجتماعي الذي بدأت تعتريه ملامح التفكك، بدءاً من عجمة اللسان، وظهور حالات جديدة من التعابير غير الدالة، والتي أصبحت لا تكون وسيطاً يوحد رؤية المسار المؤلف لعملية التواصل «بالمعنى المشترك والقدر المشترك»،

فيه أن اللغة «من حيث هي نظام من القواعد، هي شيء لامادي. إن الجانب المادي الوحيد فيها شيء عرضي وطارئ، وهو يتخذ شكل كتب النحو القديمة التي يعلوها الغبار. وبهذا المعنى، لا تعود اللغة شيئاً يخرج من جسدي، أو يدخل فيه، بل تصبح ذلك الكيان الذي يكون عليّ أن أدخله... [و] إن الإبداع في الخطاب يتجاوز بكثير مسألة التطبيق الفردي للقواعد العامة، أي تجسيد نظام اللغة عبر الكلام الفردي».^(١٧)

لقد جاءت أفكار ما بعد الحداثة لتقوض المبادئ والمسلمات المتضمنة في هويات الثقافات، وتجعل منها فعلاً ماضياً؛ أي في حكم الإجراء المتجاوز، وتعويضها بثقافات جديدة تحاول أن تخلق جيلاً جديداً، وهو ما يتفق مع ما تناوله كل من نيتشه وهيدغر في فلسفتيهما المرتكزتين على الرغبة في وضع أسس جديدة للفكر الإنساني الحديث، بحسب متغيرات العصر. ولم يعد هذا قاصراً على الثقافة العامة، بل لامس الفكر الإبداعي بوجه عام الذي تأثر بمعالم التفكيك والإرجاء، وأدخل مصطلحات باتت تبدد الوعي وتقوضه أكثر مما توحدته، ومن دون أدنى حساب لتوطين هذه الأفكار والمصطلحات بما يتلاءم مع بيئتنا وهويتنا، مثل اللغة الطفيلية، والعقلية الجدلية المنطقية *Dialogic*، والميتا حكاية، والمتالغوية، والثقافة الفرعية - والأمثلة كثيرة بما لا يتناسب مع سياق بحثنا هذا - وهي من إفرزات ما بعد الحداثة التي صدرت حشداً كبيراً من الأفكار المتعارضة الدلالات في مفرداتنا الاجتماعية والثقافية. ولعله من هذا المنظور لم يعد باستطاعة

لقد عزز كثير من الباحثين والمفكرين مكانة اللغة/ اللهجة في استعمالاتها اليومية، بوصفها لغة تتجدد باستمرار مع حياة الإنسان، وأنها في نظرهم ينبغي أن تكون دائمة التطور والتكوّن بحسب تعبير ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin في كتابه: الماركسية وفلسفة اللغة Le Marxisme et la philosophie du langage الذي يعتقد فيه أن اللغة مجموعة من البنى التاريخية المتغيرة من خلال الصراعات الاجتماعية وما يطرأ عليها من تجديد، من منظور أنها تتأثر بمحيطها وتؤثر فيه أيضاً سلباً أو إيجاباً، وقد أشار هيدغر في معنى صياغة اللغة The way to Language «إلى أن اللغة هي وحدها هي التي تتكلم، وهي تتكلم بمشيتها الخاصة».^(٢٠)

وفي إشارة مارتن هيدغر ما يدل على الدعوة إلى تأثر المجتمع باللغة وليس العكس، وتمكين اللغة التواصلية - اليومية - من إثبات الوجود، بوصفها نزعة وظيفية، تنمو بتجدها باستمرار، وهو ما يشير إليه أيضاً كثير من المفكرين المتأخرين من أمثال جيل دولوز Gilles Deleuze وفيليكس غواتاري Felix Guattari وجاك لاكان J. Lacan، وجان لوسركل Jean-Jacques Lecercle، وجورج مونان Georges Mounin، وأريك بويسنس Eric Buysens، ولويس بريطو Luis J. Prieto وغيرهم من الذين أقاموا الدليل على أن اللغة عندما تتكلم فإنها تفرض قواعدها المولدة، من منطلق أنه ليس بالضرورة أن تتبع القواعد النحوية أو المتواضع عليها، بحسب ما قننه القدامى، وأنظمة دو سوسير Ferdinand de Saussure وأتباعه subordinate، وإنما إلى لغة

بحسب المعنى الاصطلاحي لأصول الفقه، وهو ما تفتقر إليه أنساق البرادغيم، بالنظر إلى استبدال الهوية اللغوية المضادة المنفلتة، بالهوية اللغوية المعيارية، وبقواعد يُعمَل بموجبها La Grammaire interactive، أو استبدال - ما يطلق عليه - الدوالّ الدون/ لغوية «extra-linguistic signifiers (تلك الدوالّ التي تبتعث دلالاتها خارج اللغة) بما أُطلق عليه بـ «الدوالّ الضمن - لغوية» intra-linguistic signifiers (تلك الدوالّ التي تسترسل دلالاتها داخل اللغة)^(١٩)

ولعل أهم الأسئلة التي ينبغي عرضها - في هذا السياق - تكمن في مدى إمكانية تجاوب المجتمع المحافظ مع ما يتراطن به معظم الجيل الجديد برطانة اللغة المركبة من خليط من الكلمات الأعجمية والعامية، أو ما يردّها من الدخيل بكل مواصفات الهجنة، ودلالات السوءة؟ وكيف يمكن التواصل على أساس الفهم المشترك بين الناس؟، أو بصورة أدق، إلى أي مدى تستطيع اللكنة - التي أصبحت أمراً مقضياً، ومحاصرين بها من كل صوب، إعلامياً، وإشهارياً، وثقافياً - أن تحدد هوية الوعي الذاتي، ضمن سيرورة الوعي الاجتماعي، المكروب مما آل إليه الوضع من تفسخ وانحلال؟

يعتقد باختين أن اللغة مجموعة من البنى التاريخية المتغيرة من خلال الصراعات الاجتماعية وما يطرأ عليها من تجديد.

بلغة المبدع والمفكر ودارس اللغة، والمثقف، والمتكلم العادي) لهو في نظر جان جاك لوسر كل Jean-Jacques Lecercle تجسيد ممتاز للتناقض القائم في قلب اللغة؛ لأن نواة التجربة الشخصية لكل متكلم في لغته: فعندما يتكلم الشخص، تكون اللغة دائماً هي التي تتكلم. واللغة تتكلم فقط حين يتكلمها إنسان، فقط حين يتجسد نظام اللغة langue... وكل جيل يمتلك النظام من جديد، وهكذا نكون كلنا من ورثة الصائغ المجهول.»^(٢١)

إن أي لسان/ كلام يستوجب في تقديرنا نسقا تنظيميا، وإطارا منهجيا، ومعرفة - على الأقل نسبية - من الإدراك التصوري؛ لتداعيات الدال وارتباطه بالمدلول المرام، واستحضار نسق التجاور بينهما، تبعا لمقتضى حال المكان والمكانة، وبمقتضى إدراك الشيء في ذاته، وهذا ما لا نجده في سياق لسان البراديعم الجديد الذي يميل إلى استعمال ما يسميه برغسون Henri Bergson بـ: (المتعذر تعبيره، أو المتعذر وصفه l'inexprimable) على الرغم مما في هذا الطرح من اختلاف نسبي في استثماره - في هذا المقام - فيما نقصده بعجز الجيل الجديد من ربط علاقة الدال بالمدلول، وتعذره عن التعبير عما يختلج مشاعره، أو ما يريد قوله بطلاقة مما سبب إشكالا في استرسال تواصل حديثه، واتساع مداه نتيجة الحبسة، أو الصُّمات aphasia «الذي يعاني منه، ولم يعد بوسعه أن يعبر عن المَحْدُوسات intuited objects تعبيراً دقيقاً، أو أن يصفها وصفاً وافياً، في واقع الأمر... كونه يعاني من اضطراب في الاختلاف والتجاور، ينحو نحو

تجمع بين تجديد الواقع، والسعي إلى كل ما هو متجدد واحتوائه، والإيلاج به، وليست بناء مستقراً، وإنما هي كيان مززعج، يحمل طابع بذور العنف violence، أو شكل التغير الجذري.

ولعل الإشارة اللافتة من آراء هذه الأسماء نجملها فيما ورد عن جان جاك لوسر كل Jean-Jacques Lecercle الذي عد اللغة المتداولة بين الناس محور التواصل في الحياة اليومية والثقافية، وحتى الإبداعية؛ لأنها باتت - بحكم الواقع المفروض من الشارع - تخترق القواعد اللغوية، وتغير من ضوابطها. وفي هذا تأكيد جواز استعمال اللهجة المحلية، من غير سند علمي، ولما فيها من دال عرضي، من منطلق أن وضع اللهجة أصبح مفروضاً بفعل الشيوخ والامتداد على حساب اللغة الفصحى المائلة نسبياً عن الكِنِّ. وفي ذبوع رطانة لسان الجيل الجديد ما يشبه انتشار الجذمور (النجم) من النبات مما لا ساق له، وهو حال لغة هذا الجيل التي تنمو من دون انتظام في الحياة اليومية، وفي مداها الواسع بتأثيرها في الاستعمالات اللغوية المتواضع عليها دلاليًا.

إن هذا المنحى الذي أصاب اللغة عبر سلسلة من التحولات (من اللغة الراقية، إلى اللغة اليومية، مروراً

وإذا لم نسرع في وضع حد لإهمال اللغة العربية سوف يصيبها ما أصاب اللغة اللاتينية.

بعد أن فقد الدال علاقته التعااقبية في وعي العاجز عن التعبير اللفظي، وبعد أن افتقر متلفظه إلى الحالة السببية التي تجمع بين الدال والمدلول، أو ما يسمى في علم اللغة بالمتواليات الدالة، وهو اعتلال يصيب اللسان بخلل، وعجز عن الإفصاح بنطق مبین؛ ليتحول العي/ التلكؤ إلى لازمة شائنة في لسان متلفظه. وقد سبق وأن تطرق فرويد Sigmund Freud إلى هذه الظاهرة، ضمن الحديث عن فقد القدرة على صياغة الأفكار التي أرجعها إلى ثلاثة أنواع:

١. الحُباس اللفظي verbal aphasia، وهو الحُباس الذي «لا تضطرب [فيه] سوى التدايعات، أو الترابطات بين العناصر المنفصلة لتمثيل الكلمة».

٢. الحُباس اللارمزي asymbolic aphasia، وهو الحُباس الذي «يضطرب [فيه] التدايعي، أو الترابط بين تمثيل الكلمة وتمثيل الشيء».

٣. الحُباس اللاأدري agnostic aphasia، ذلك الحُباس الذي يصيب فيه الاضطراب، فيما يظهر، سيرورة التدايعي أو الترابط بين الشيء وتمثيله (أو ربما بين الكلمة وتمثيلها).^(٢٤)

وعلى الرغم من محاولة تنميط الحياة، وتحرك مسار الهوية نحو اتجاهات متعددة الأقطاب والمشارب، وعلى الرغم من بروز سلوكيات جيدة أصبح بموجبها المرء يعيد صياغة أسلوب حياته وفق ما تمليه عليه ثقافة المشهد اللامع، بطابعه الحسي الناعم، والداعي إلى بناء وعي جديد، قوامه محاولة خلق براديعم جديد. وقد

استخدام الاستعارة استخدامًا غالبًا عن طريق المحور الاستبدالي^(٢٢) في مقابل المحور التركيبي النحوي، أو بحسب تمييز دوسوسير De Saussure العلاقات الاقتراعية الترتيبية في المحور الاستدلالي بالعلاقات التركيبية، بخاصة تركيب الجمل المفيدة التي لم تعد في مقدور الجيل الجديد أن ينظم أفكاره بها نظير الحبسة الراطنة L'aphasie، حيث التواصل غير بائن، وحيث مخارج الحروف متداخلة، والنبير الصوتي مشين، وهو ما أشار إليه أيضا جاكوبسون Roman Jakobson في أثناء حديثه عن اللغة الشعرية، وما قد يعترىها من سقوط المحور الرأسي على المحور الأفقي، مستدرجا تحليله إلى العيب الكلامي L'aphasie بوصفه خلافا في التعبير، سواء بالكلام أو الكتابة، أو في فهم معنى الكلمات المنطوق بها، أو في تسمية الأشياء، وقد عالجهها جاكوبسون معالجة عمقت النظرية اللغوية البنيوية، فميز بين الحبسة التي تقع على مستوى اختيار الكلمات، والحبسة التي تقع على مستوى التضام بين الكلمات.^(٢٣) وإذا كانت دلالة اللسان تأخذ طابع الرسالة/ التواصل، أو اللسان/ الكلام في قالب لغوي تحكمه الجملة المتواضع عليها، فإن هذا اللسان قد يأخذ مجرى اللكنة والرتانة، يكون بموجبه غير قادر على الإبانة ضمن السياق الذي يتكون منه التعبير، فيقتحم كيان الذات المتكلمة سديمًا داكنًا، ويترسب في ذاكرته غشاوة، ناتجة من تبعر الدوال، وتشتتها في ذهنه من دون ترابط، وبمضامين لغوية غير منظمة، حينئذ يكون الارتباط بين الذات واللغة مبنيا على العشوائية،

- صعوبة ترسيخ الرطانة، بوصفها فعلاً عشوائياً. واللغة ملكة ذهنية وإدراكية، وأداة منظمة تنظيمياً عقلاً، وكل فعل عشوائي، يحمل معه سرعة الاختفاء، واندثار بقاياها.
- لأن هذه الرطانة تحمل في أنساقها تناقضات وسياقات غير منتظمة.
- إدراكها أن انتقال اللسان من اللغة المقننة إلى لهجة - بهذا المستوى - ليس من قبيل المصادفة، أو عفوية تلقائية، ولكنه ناتج ممن له مصلحة في التغيير.
- أن هذه الرجة من الرطانة، تعزز لسان اللحظة [المرتدع]، على حساب نظام لغة الضمير الجمعي [الثابت] وكل دائم، وورصين، متفوق. وفي هذه الحال، عندما تستولي الأنساق الثقافية الجديدة على اللسان، تنشق «لغة أخرى» منفلة - بمستوى حججها الواهية - من اللغة الأم بقواعدها النحوية، وحين يبدو الكلام/ اللسان مركباً بجمل غير مفيدة، وبلكنة مسيطرة، تحاول إعادة تنظيم أساليبنا، بحسب ما يطرأ من تفاعلات ثقافية، يراد للغة المصدر أن تتلاشى وتفكك قواعدها.
- وإذا كان وضع مستقبل لغتنا بهذا المستوى العاق الذي ألزمه الواقع الافتراضي المهيمن على المجتمع، فإن استنزاف طاقة المدافعين عن سلامة اللغة باتت مخيفة من هوية هذه الرطانة اللقيطة التي أصبحت تؤسس نمطاً جديداً من الحياة، ومن الوعي الزائف الذي بات يتماهى مع أفكار ما بعد الحداثة، ضمن

أسهم في هذا المشهد المدهش فعل الطفرة المعلوماتية المتزايد في التطوير، وبأقصى سرعة، وعلى الرغم من تدرج انحسار الهوية عن سؤدها، عبر وابل من الاهتزازات السلوكية المغربية، أو المثيرة، والموردات الثقافية المتنوعة، على الرغم من ذلك نلاحظ أن جوهر الهوية الأصيلة هي دائماً محل استعصاء على من يحاول أن يلوي قيمها، وموضع استحالة على من يسعى إلى ثني سبيلها؛ لأن الاتجاه نحو صون أي حضارة، أو إدامة الإبقاء على مكتسباتها، أو الرغبة في المثابرة على تحقيق ذاتها يستدعي وجود توازن، وأزر ثقافية، واجتماعية، ودينية، وسياسية لا يمكن فصل بعضها عن بعض إلا بالتمايز والتباين والتغاير عبر الأجيال المتعاقبة؛ لأن كل ذات هي شفع، في أي وجود، بما تنتجه، كيفما كان هذا الخلق من الإنتاج بمؤهلاته المتباينة أو المتجانسة، المتنافرة أو المتماثلة، المتناقضة أو المتشابهة. وتبقى الهوية في ظل هذا المتفاوت والمتألف كائناً حضارياً موجوداً بكل أشكال الطيف، وهي من جهة أخرى توجد تحت حماية سنن الطبيعة، وسنن المكونات الحضارية، وسنن الرعاية من ذوبها، من البررة.

ومن هنا، أيضاً، تستدعي الهوية ما يتطلب؛ لحماية نفسها بنفسها، وهو ما ينطبق على اقتحام اللكنة اللسان العربي المبين، كما تتفطن الهوية لما يترصد لها من كيد، وتنبهها إليه، من منظور:

- استحالة قدرة الرطانة بالتأثير السلبي - جذرياً - على بنية اللغة المتواضع عليها.
- استحالة تعميمها على العلاقات الاجتماعية.

بحسب تجربتنا في حق وجاهة لغتنا ومكانتها المأمولة، والمغتصبة قهراً، والمستلبة ظلماً، تحت ضغط التأثيرات الجانبية. وعلى الرغم من أن هناك حلولاً مطروحة من وجاهة مفكرينا، يمكن العودة إليها في مظانها، فإننا ارتأينا أن نسوق تجربتنا في هذه الإمكانيات، وهي على النحو الآتي:

- مراجعة نظم التعليم في مدارسنا بما تستوجبه الطرائق الحديثة تمشياً مع التطورات العلمية المستجدة.
- إعطاء الأهمية القصوى في المراحل الأولى من التعليم لتدريس مواد: [المحادثة، والتعبير، والإنشاء] بوصفها زاداً لغوياً رصيناً تمكن التلميذ، الجيل الواعد، من التعبير بطلاقة عن مشاعره وطموحاته، والتي ستعكس إيجاباً على وجوده بعد تحمله المسؤوليات العليا، ناهيك عن المسؤوليات الأقل، فالأكثر أقلية، والمتدرجة إلى مسؤوليته الأسرية.
- التركيز على الجانب الوظيفي في تعلم اللغة العربية.
- إدخال مفردات العصر عن طريق النحت والاشتقاق، أو عن طريق الترجمة السليمة، أو الاقتباس في حال أن تكون المفردة مصطلحاً شائعاً.
- الاهتمام بلغة الأطفال، والإعلاء من شأن أدبهم، والكتابة لهم بلغة ميسرة، يراعى فيها الجانب الوظيفي.

إطار الاهتمام بالذات على حساب الجماعة، وكسر المسافة على حساب المركز؛ الأمر الذي بدأ يسهم في إنتاج معانٍ جديدة ألزمها المكان المتشظي، والزمان المتلاشي، والوعي المندثر، والضمير الواهي، ضمن علاقات مركبة صدرها مشروع ما بعد الحداثة «وهكذا يمكن القول إن كل مشروع تغييري للمجتمع ملزم بأن يأخذ بالحسبان شبكة تحولات التصورات والممارسات المكانية والزمانية». (٢٥)

لقد تحول الخطاب الاجتماعي في سياقه التداولي من اليقين الذي كان مدار المصداق في التواصل إلى تليق الحديث/ الخطاب وتمويهه، والميل إلى كل ما هو افتراضي، تأثراً بالمجال السايبر Cyberspace الداعي إلى غايات متنوعة لامتناهية؛ لتصبح الحقيقة مدار تفكير اللحظة، ونتاج قاعدة الرؤية العفوية، والارتجال بلا روية في غياب ما ينبغي أن يطبعه التعلم من تعابير ذات صياغة دلالية واضحة، لعل سبب ذلك يعود إلى أن «التصور ما بعد الحداثي للتعلم مبني على الاعتقاد بأن كل فرد يصنع المعنى من مصادر مختلفة، بدلاً من استقبالها جاهزة من خبير» (٢٦)

وحتى نجعل من لغتنا إجراءً وظيفياً يوفر إمكانية الوصول إلى ذوق أجيالنا القادمة، وفي مدى استخدامها علمياً وعملياً، واقترابها من المعارف الجديدة، وحتى نجعل منها لغة إنتاج في استعمالاتها النوعية؛ في خضم ذلك نكتفي بإعطاء وجهة نظرنا في قابلية وظيفة اللغة، بوصفها أداة للدخول في التميز، تتجاوزاً مع تغيير الأنساق الثقافية الجارية في المجتمعات الحديثة، وذلك

الترويج له مؤخراً تحت اسم: التاندم بارتنر^(٢٧)

(Tandem) مختصراً من اسم (Tandem-

Sprachlernmethod

- الاهتمام بإدراج اللغة العربية في تعلم المواد العلمية - في جميع المجالات - ضمن مناهج الجامعات ومراكز التكوين.

وإذا لم نسرع في وضع حد لإهمال اللغة العربية

سوف يصيبها ما أصاب اللغة اللاتينية - مثلاً - والتي

تغيرت بمرور الزمن، وتوزعت إلى عدد من اللغات

كالفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، فتصبح عندنا - لا

قدر الله، بفضل وعده - لغة جزائرية، ولغة مصرية، ولغة

سورية، ولغة خليجية، ... إلخ، هذا إذا صح لنا أن نمتلك

القدرة على ذلك، وليس لنا أمام هذا الوضع إلا «النفخ

على الجمره كي لا تنطفئ»، وإلا سوف نسهم في اندثارها

كما اندثرت اللغة البابلية، والكنعانية، والأشورية ... إلخ.

وإذا كان اندثار لغة ما ينتج من إهمالها من ذويها؛ الأمر

الذي يجعلها تعوّض بلغة أخرى، فهل تستفيق نخوة

العروبة، وشهامة المسؤولين، وعزة نفس الغيورين على

اللغة العربية، وأنفة المتحمسين، وإباء المترفعين من

ذوي الاستعلاء، وتراجع الحاقدين، وجدية المؤهلين

[بكسر الهاء] وإخلاص المعلمين، وكرامة القائمين

عليها، وحرص أولياء الأمور، ومن غير هؤلاء كثير، أن

ينقذوا أبناء الغد القريب؛ للتعبير عن طموحاتهم بلغة

واضحة، وكتابة أسطر سليمة، على الأقل، حتى يكونوا

في مستوى المسؤولية في حينها. أين نحن من هؤلاء؟

وهل نترك صرخة اللغة العربية - على لسان حافظ

- توسيع خبرات المؤهلين وتعميقها، والكف عن تأهيل ذوي المعدلات المتدنية في مستوياتهم العلمية، وتشجيع المتميزين للالتحاق بالتأهيل بالمكافآت المادية والمعنوية.

- حث مؤسسات المجتمع المدني على التعامل مع اللغة الواضحة.

- إبعاد دعاة العامية من وسائل الإعلام.

- مراقبة الوسائل الإشهارية المستخدمة في جميع

- الأماكن ووسائل الإعلام بما يخدم سلامة

- اللغة، خاصة ونحن نعيش عصر الصورة، التي

- أصبحت تشكل تأثيراً بالغ الأهمية، وسرعة

- فائقة في التأثير السلبي على أبنائنا.

- محاولة تقريب اللغة العربية - تدريجياً - من

- الأسواق التجارية، وفرض جباية على كل من

- يلصق لافتة باللهجة الدارجة، أو باللغة الأجنبية،

- من دون أن يقابلها ما يعبر عنها باللغة العربية على

- المحال التجارية أو المؤسسات، أو التظاهرات،

- ومراجعة مضامين هذه اللافتات.

- زرع حب اللغة الأم في القلب بدل وجود هذا

- الحب على الشفنين، وعند الضرورة.

- خلق مشروع حقيقي لتبسيط تعلم اللغة العربية،

- على غرار المشاريع الحديثة التي توظفها

- المؤسسات التعليمية العريقة لغير الناطقين

- بلغتهم تحت مسمى «بورصة تعليم اللغات»،

- كما هو الشأن في آخر ما استجد من طرق

- لتعلم اللغات الحية مثل المشروع الذي بدأ

الهوامش

إبراهيم تذهب سُدىً حين استغاثت:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتي

ولدت ولمّا لم أجد لعرائسي

رجالاً وأكفاء وأدت بناتي

وكيف نسمح لأنفسنا أن توأد لغتنا و«نكيها مثل

النساء إذ لم نحافظ عليها» كما حافظ الرجال على

لغاتهم؟ وبعد ذلك أين مروءة الرجال في زماننا؟ وأين

نخوة العروبة في واقعنا؟ ولكن، لعل مجيباً يجيب عن

سؤال البحث عن الرجل الواعد، كما قال صلاح عبد

الصبور:

يا اصبر ديانا أجمل مما تذكر

اصبر سيجيء .. سيهلّ على الدنيا يوماً ركه

* أكاديمي وناقد من الجزائر، أستاذ النقد والدراسات البلاغة والسيميائية، في جامعة قطر، رئيس تحرير مجلة سمات الدولية، التي تصدر من جامعة البحرين والمركز الدولي للنشر، عمل عميداً لكلية الآداب في جامعة وهران في سنوات التسعينيات، له العديد من الكتب في مجال التخصص منها «نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية (٢٠٠٥) و«الجمالية في الفكر العربي» (١٩٩٩). أسهم بمقالات نقدية وثقافية في العديد من الدوريات، والمجلات المحكمة، أسهم في صياغة العديد من المشاريع الثقافية، والندوات، والمؤتمرات، ونشر الكتب، والدوريات المتخصصة.

١ ينظر، جيرمي ريفكين: عصر الوصول: الثقافة الجديدة للأسئلة المفرطة، ترجمة: صديق الدموجي، المنظمة العربية للترجمة، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٦٩.

٢ عبد الله الغدامي: القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٩، ص ٤٥.

٣ هيدغر: الأعمال الكاملة، ج ٦٥، ص ٤٩، عن فتحي المسكيني: الهوية والزمان (تأويلات في فينومينولوجية لمسألة «النحن»)، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ٢٠٠١، ص ٥.

٤ فتحي المسكيني: الهوية والزمان (تأويلات فينومينولوجية لمسألة «النحن»)، ص ٩.

5 Heidegger ; Essais et conférence ; que veut dire « pensés » paris 1985 ; p.177

٦ ستوارت هول: هوية قديمة جديدة، إثنيات قديمة جديدة، ضمن كتاب، الثقافة والعولمة والنظام العالمي، تحرير: أنطوني كينج، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٧٢.

٧ ديفيد هارفي: حالة ما بعد الحداثة - بحث في أصول التغيير الثقافي - ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٧٨.

٨ المصدر نفسه، ص ٧٧-٧٨.

٩ ستوارت هول: هوية قديمة جديدة، إثنيات قديمة جديدة، ضمن كتاب، الثقافة والعولمة والنظام العالمي، تحرير: أنطوني كينج، ص ٧٦.

١٠ دغار موران: النهج - إنسانية البشرية/ هوية البشرية، ترجمة: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي الثقافية والتراث، كلمة، ط ١،

١٩ ينظر، غياث المرزوق: الدال، موقع معابر، الرابط، //http://
maaber.50megs.com/

20 Martin Heidegger, On the way to Language , translated by
Peter D. Hertz

وانظر أيضاً، دراسة. 1971. New York: Harper & Row, D.Hertz. ...
٢١ جان جاك لوسر كل: « عنف اللغة »، ص ٢٠٦.

٢٢ نظر، غياث المرزوق: الدال، موقع معابر ، الرابط .//http://www.
maaber.org/

٢٣ ينظر، رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر
عصفور، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨، ص
١٠٢، بما في ذلك تعليق المترجم في الهامش رقم ١١ .

٢٤ ينظر، غياث المرزوق: الدال، موقع معابر ، الرابط .//http://www.
maaber.org/ .

وينظر أيضاً، Harrington, Anne. Medicine, Mind, and the Double
Brain: A Study in Nineteenth-Century Thought. Princeton
University Press; 1989. p.245.

٢٥ ديفيد هارفي: حالة ما بعد الحداثة - بحث في أصول التغيير
الثقافي، ص ٢٥٩.

26 Caine, R. & Cane, G. (1997). Education on the Edge of
Possibility. Alexandria (VA): ASCD

٢٧ وتقوم هذه المبادرة على أساس اشتراك طرفين يتقنان لغات
مختلفة في تعليم بعضهما بعضا عن طريق التواصل
المباشر، أو الرسائل العادية، أو الإلكترونية، أو حتى بوساطة
برامج المحادثة المباشرة على شبكة الانترنت.

٢٠٠٩، ص ٢٨٥.

١١ مطاع صفدي: الفكر بما يرجع إليه وحده - سؤال العتبات -
مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ١٠٢/١٠٣، بيروت، لبنان،
١٩٩٨، ص ٧.

١٢ جان بودريار: المصطنع والاصطناع، ترجمة: جوزيف عبد الله،
المنظمة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٤٤ .

١٣ ديفيد هارفي: حالة ما بعد الحداثة - بحث في أصول التغيير
الثقافي، ص ٣٣٣.

١٤ يستخدم اسم «الجيل واي Generation Y» للدلالة على الجيل
اليافع الذي وجد في بداية الألفية الثالثة - مع تضارب في
تاريخ النشأة - وهناك من أطلق عليه جيل (Millennials) بدلا
من «جيل واي»، وهو الجيل المنشغل بكل ما يمت بصلة إلى
الشكل الثقافي التجاري الإشهاري، وعلو شأنه في سلوكيات
الحياة الاستهلاكية.

15 Barthes (R) : Eléments de sémiologies, éd. Du seuil, 1964,
p.80.

16 Haushildt, P & Wesson, L. (1999). When postmodernism
thinking becomes pedagogical practice. In Teaching
Education. 10,2,123-129.

١٧ جان جاك لوسر كل: « عنف اللغة »، ترجمة: محمد بدوي،
المنظمة العربية للترجمة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٢٠٩-٢١٠.

18 Christopher Lasch: The Culture of Narcissism. American
Life in an Age of Diminishing Expectations. NEW York
Naorton, 1979, pp 30-33

Christopher Lasch. La culture du narcissisme : La vie
américaine à un âge de déclin des espérances.